"البحث الأثري بموقع سجلماسة، الحصيلة الأولية والإشكاليات"

د. لحسن تاوشيخت[1]

إذا كانت المصادر المكتوبة لا تقدم لنا معلومات مهمة عن الجوانب العمرانية لمدينة سجلماسة، فإن الاعتماد على علم الآثار يمكن من فهم التنظيم المعماري السجلماسي وخاصة مورفولوجية الأحياء وطبيعة عيش السكان ومواضع الصنائع. ويهدف البحث الأثري بموقع سجلماسة إلى دراسة مجالها عموما بما فيه التجمعات السكنية، والمؤسسات الإدارية، والمرافق الدينية، والتجهيزات الاقتصادية والموارد المائية والنظام الإيكولوجي. وتهتم الدراسة كذلك بالتطور العمراني، ودور المدينة أولا كعاصمة إمارة مستقلة ثم كعاصمة إقليم، ودورها كمركز للمذاهب الدينية ثم كقاعدة عسكرية، وكواحة فلاحية، وكمحطة تجارية ونقطة تواصل مع بلاد السودان.

وأكدت مواسم الحفريات بموقع سجلماسة ابتداءا من سنة ١٩٧١ إلى غاية ١٩٩٨ أن الكثير من المعطيات المحصلة تبقى دون المستوى المطلوب، وتتطلب إضافتها إلى المعلومات المكتوبة والروايات الشفوية للمقارنة والتحقيق قصد التوصل إلى تدقيق التاريخ السجلماسي العام.

ويمثل موقع سجلماسة الأثري مختبرا جيدا لتحليل معالم الحضارة العمرانية المغربية، خاصة وأن آثاره ظلت حبيسة الأنقاض منذ نهاية القرن 8 الهجري / 14 الميلادي على الأقل. وتقتضي دراسة مثل هذه المدينة الاعتماد على تخصصات متعددة كالتاريخ، وعلم الآثار، والأنتربولوجيا، والجغرافيا الطبيعية والبشرية، وعلم دلالات الأسماء، وعلم الاجتماع،...وغيرها، وذلك بغية الوصول إلى أجوبة صريحة حول الإشكاليات المطروحة والتعرف بدقة على الخبايا التاريخية والأثرية للمنطقة. وتبدأ الخطوة الأولى بالمسح الأثري الدقيق لكل المجال[2]، والتحقيق التاريخي لمختلف مراحل تعمير الموقع للإجابة عن مجموعة من الأسئلة ومن أهمها كيف أنشئت سجلماسة وكيف كانت منظمة معماريا ولماذا اندثرت بتلك السرعة؟

---

[1]) أستاذ التعليم العالي / المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط)

[2]) Touri A., « Problématiques d'une recherche d'histoire et d'archéologie médiévale dans la région du Maroc présaharien », dans Actes du IV° Colloque Euro-africain. 1985 (pp. 32 - 35).

I- التنقيبات الأثرية الأولى بالموقع:

ترجع التحريات الأركيولوجية الأولى بموقع سجلماسة إلى بداية عقد السبعينيات من القرن العشرين وكانت الانطلاقة تحت إشراف مصلحة الآثار القديمة بالرباط التي أقدمت سنة ١٩٧٠ ميلادية على إنجاز حفريات على شكل أسبار ولكن دون أن يتبعها أي تقرير عن الحصيلة. وفي نفس العام أجريت كذلك مسوحا من طرف بعثة من معهد بريسكوت Prescott College تحت مسؤولية مؤسسة سميت – سون Smithsonian Institution ولكنها لم تقدم أي نتيجة أو متابعة.

الشكل ١

صورة جوية لموقع سجلماسة

١- الحفريات الإيطالية (١٩٧١- ١٩٧٢ ميلادية):

تعتبر من أهم وأولى الحفريات بسجلماسة، وأشرفت على إنجازها مؤسسة لودويك كيمر دي بازيليا"la Fondation Ludwig Keimer de Basilea" تحت رئاسة الباحث بوريس دي راشويلتس Boris de Rachewiltz. وهمت هذه الأبحاث التي أجريت في موسمين، المركز الأوسط والمنطقة الشمالية للموقع قرب قصر المنصورية الحالي والأبواب التاريخية الثلاثة المجاورة له:

أ) <u>الموسم الأول (من ٢٩ مايو إلى ٣ يوليو ١٩٧١ ميلادية)</u>:

تميزت هذه البعثة بكونها كانت مختلطة، مغربية – إيطالية[٣]، وذات تخصصات متعددة فضلا عن كونها استعملت معدات تقنية جد متطورة في البحث، مثل نظام المسح الميغناطيسي والكهربائي، والرفوعات الفوتوغرافية بواسطة الموجات أو الأشعة فوق الحمراء. وتركزت أبحاث هذا الموسم على منطقتين أساسيتين تقع أولاهما بالقرب من الآثار الحالية المتبقية من القصبة السجلماسية وتوجد الثانية على بعد حوالي ١٢٠٠ مترا إلى الشمال من الأولى. وتم الكشف فيها عن عدة تشكيلات معمارية متقابلة والمشيدة في أغلبها من الطابية، إلا أن معظم الطبقات الأثرية لم تقدم أي جديد ذي أهمية ما عدى ركامات من التراب البني المختلط أحيانا مع الحجارة. وهي توضعات على شكل طبقات غير واضحة المعالم وفقيرة إلى اللقى الأركيولوجية. وتتجلى أهم اكتشافات البعثة في حوض مائي كبير، وبقايا سور، والقرميد، وعظام بشرية وبعض القطع الخزفية...

وتجدر الإشارة إلى أن البعثة المغربية–الإيطالية أنجزت أيضا عدة أبحاث تكميلية كالبحث الإثنولوجي في كثير من القصور الفيلالية والدراسة الأنثروبولوجية والجينية [الاجتماعية والديموغرافية، والفيزيولوجية والمورفولوجية].

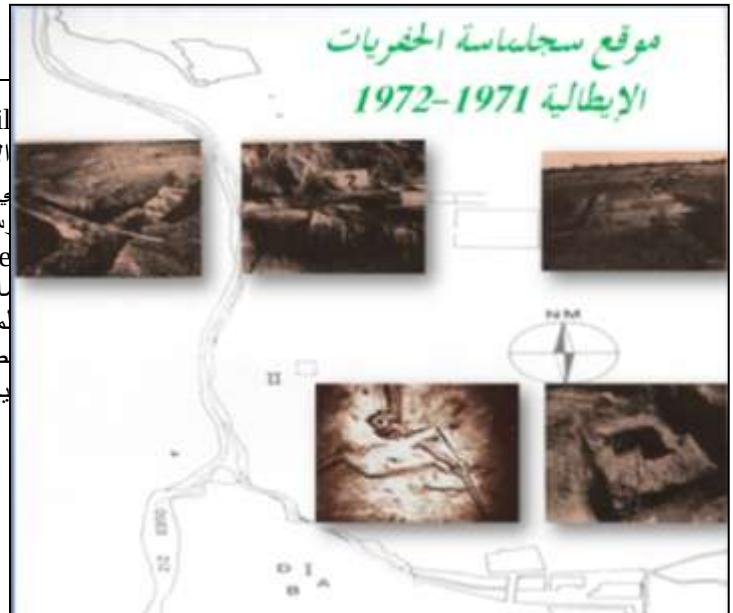

Boris de Rachewil : مدير الأنثروبولوجي والجينات، وبيو ي بنابولي: تخصص في البحث رسة Fondation Lerici: في Siegfried Walte من جامعة ا الجانب المغربي فيضم الحاج لمباني التاريخية بمكناس، وعبد صلحة، ومحمد بنشمسي: مفتش يلالت.

الشكل 2 : الحفريات الإيطالية ١٩٧١ و ١٩٧٢

ب) الموسم الثاني (من ٢٨ مارس إلى ٧ مايو ١٩٧٢ ميلادية):

تركزت الأبحاث الأثرية خلال هذا الموسم[٤]، على المنطقة الشمالية لموقع سجلماسة قرب الباب التاريخي المعروف ب"باب الريح" وقرب حوض بن زيريك. ومن أجل الحصول على المعلومات الأولية حول الكثافة الكهربائية للطبقات الأثرية، ثم إجراء مسح كهربائي بواسطة نظام قياس موجات التيار « volt à ampèremètre ». وكشف المسح الكهربائي عن مؤشرات مهمة، أهمها أن تكوين التربة متنوع جدا بفعل ترسبات وادي زيز. وأكدت هذا التنوع الأسبار المنجزة في هذه المناطق. ولم يسمح هذا التكوين من الرمل والحجارة خاصة، بالتمييز بين الطبقات الأثرية وبالخصوص

[٤]) وتكونت البعثة في هذا الموسم من: الجانب الإيطالي ويضم بوريس دي راشويلتس Boris de Rachewiltz: مدير الأبحاث، وفيتوريو كاستيلاني Vittorio Castellani من جامعة روما والمركز الوطني للأبحاث C.N.R : مسؤول المسح الجيوفيزيائي، وباولو بارزي Paolo Parisi من جامعة روما: اهتم بالبحث الأنثروبولوجي والجينات، ولويجي سيرا Luigi Serra من المعهد الجامعي الشرقي بنابولي: اهتم بالبحث الإثنولوجي والدراسة الأمازيغية، وفيتوريو كالوا Vittorio Caloi (C.N.R)وألدو فينييتي Aldo Vigniti ، وسيكفريد والتر دي راشويلتس S. de Rachewiltz: مساعدون، أما الجانب المغربي فيتكون من الحاج الهادي من المعهد الأثري بالرباط ومولاي أحمد العلوي من مفتشية المباني التاريخية بمكناس.

في المنطقة الثالثة بسبب التوضعات الناتجة عن فيضانات وادي زيز. وبالرغم من هذه الصعوبة، يعتبر المسح الكهربائي من الوسائل الضرورية التي تساعد على الكشف مسبقا عن الأماكن التي يمكن أن تنجز فيها الحفريات الأثرية.

وعثر خلال الحفريات التي اتخذت شكل أسبار عن عدة بقايا أركيولوجية منها: شبكة من القنوات المائية، ونباتات مفحمة، وسد تلي صغير، وقنطرة، وحديقة من الطراز الأندلسي، ونافورة جميلة، وعظام بشرية، وزجاج، وحلي ولقى خزفية وخاصة من الزليج والفسيفساء. وتجدر الإشارة كذلك إلى الأبحاث الموازية التي أنجزت خلال هذا الموسم ومن أهمها:

-الدراسة الطبوغرافية وكشفت عن أهم التشكيلات وخاصة الأثرية لموقع سجلماسة [أحواض وقنوات مائية، ومساكن...]،

-المسح الجوي بواسطة رفوعات بالأشعة تحت الحمراء لتحديد التشكيلات المفصلة للتربة،

-دراسة النقوش الصخرية الموجودة بالقرب من الطاوس على بعد ٦٠ كيلومتر إلى الجنوب من الريصاني.

كانت البعثة الإيطالية التي أشرفت عليها مؤسسة كيمير، تتوفر على برنامج بحث متكامل حول موقع سجلماسة الأثري ويهدف إلى القيام بدراسة شاملة وهادفة ومتابعة الأبحاث الجيولوجية، والأركيولوجية، والإثنولوجية، والسوسيولوجية...إلى أخره. لكن هذا الطموح لم يتحقق وتوقفت هذه الأبحاث عند بدايتها، كما أن نتائج الموسمين المنجزين، لم ينشر عنها سوى تقرير موجز على شكل مقالة باللغة الإيطالية بقلم مدير الأبحاث "بوريس دي راشويلتس" وفيها تمت الإشارة بتلخيص شديد إلى التقنيات المستعملة، والدراسات المحققة وبعض المواد المكتشفة[٥].

٢- الحفريات المغربية (يوليو - غشت ١٩٧٤ ميلادية):

أنجزت هذه الحفريات من طرف وزارة السياحة والأشغال العمومية وأشرف عليها المهندس محمد بنشمسي، مفتش المباني التاريخية بمكناس. وتركزت الأبحاث بالأساس على قلب القصبة السجلماسية على بعد أمتار قليلة غرب بقايا المسجد الجامع، حيث كشفت عن آثار بناية كبيرة ربما كانت منزل أحد المسؤولين الكبار بالقصبة. كما تم العثور خلال هذه الحفريات على لقى أثرية مهمة وخاصة الخزفية منها. ينتمي معظم هذا الخزف وهو من النوع العادي أو المملط بطلاء إلى معامل قصر بحاير الأنصار، بينما يمكن أم يصنف الباقي منه بالمستورد وخاصة من مدينة فاس. ويمكن تأريخ هذا

[5]) Rachewiltz B., "Missione ethno-archéologica nel Sahara Maghrebino, rapporti préliminairi", dans Quaderni delle Rivista "Africa". Rome, A.B.E.T.E, publication de l'Instituto Italiano per l'Africa, sans date. 20 illustrations dans le texte et 10 figures hors texte (pp. 519 - 568).

الخزف ما بين نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

يمكن القول حسب هذه المكتشفات وحسب نوعية الطابية المستعملة والمتكونة من خليط من الطين واللقى الخزفية، والعظام، والقطع الخشبية وحسب المعطيات التاريخية وعمق الحفريات، إن البناية السالفة الذكر تنتمي إلى مجموعة البنايات الملحقة بالمسجد الجامع وهي ولا شك من تشييد السلطان سيدي محمد بن عبد الله حوالي سنة ١٧٨٣ أو ١٧٨٤ ميلادية.

وتبقى مع الأسف مجريات هذه الحفريات ونتائجها مجهولة، إذ لم تنشر عنها أية دراسة. الأسباب متعددة، يتعلق أهمها بصعوبة تحليل المعطيات المحصلة والعقبات التقنية الناتجة عن خصوصية موقع سجلماسة الأثري.

٣- تحريات مختبر الخزفيات بمدينة ليون الفرنسية (١٩٨٤):

كانت هذه الأبحاث عبارة عن زيارة ميدانية[٦] لموقع سجلماسة وخاصة للمعامل الخزفية الواقعة بواحة تافيلالت وتهدف إلى جمع معطيات عن الخزف المحلي وإجراء تحاليل مخبرية لقطع صلصالية مختارة. وحاولت هذه المقاربة العلمية ضبط واردات مدينة أودغشت من الأواني الخزفية السجلماسية خاصة بعد أن طرحت أبحاث موقع أودغشت، إشكالية مهمة تتجلى في أن خمسين في المائة من الخزف المكتشف بهذا الموقع يرجع أصلها إلى سجلماسة. وقد كشف مختبر الخزفيات بليون وجود معمل أو عدة معامل خزفية بمنطقة سجلماسة كانت تزود خلال فترة معينة، أودغشت بالمنتجات الخزفية. وهكذا أجرت البعثة سنة ١٩٨٤ ميلادية مجموعة من المسوح السطحية بموقع سجلماسة والضواحي "من أجل الوصول إلى تحقيق هذه الأطروحات، حيث جمعت عدة لقى خزفية وقطع من الصلصال. هذه القطع تم تحليلها وتصنيفها حسب مثيلاتها من أودغشت"[٧].

تكشف دراسة النسب المئوية لأهم القطع الخزفية وللبقايا الكيماوية لمكوناتها مثل البوطاسيوم والماغنزيوم والكالسيوم والنيكل والكروم والحديد والألومنيوم... عن التشابه الكبير في التكوين بين الخزف السجلماسي ونظيره المكتشف بموقع أودغشت. التأريخ النسبي للقطع السجلماسية حسب تحاليل الكاربون ١٤ C يرجع إلى فترة كرونولوجية تمتد ما بين ٧٩٠ و١٢١٥ ميلادية مع هامش خطأ ناقص أو زائد مائة سنة. ووجدت القطع الخزفية السجلماسية المكتشفة بأودغشت بثلاث مستويات رئيسية:

---

[٦]) تحت إشراف مختبر الخزفيات بليون / فرنسا Laboratoire de Céramologie, Lyon, France وشارك فيها كل من موريس بيكون Maurice Picon، ورحمة الحرايقي Rahma El-Hraiki و دونيس روبير Denise Robert.

[7]) EL Hraiki R., Picon M. et Robert D., "Atelier producteurs et commerce transsaharien à l'époque médiévale", dans Colloque International de la Céramique Médiévale en Méditerranée Occidentale. Sienne 8 -12 octobre / Faenza 13 octobre 1984, Firenze, edizioni All 'Insegna del Giglio, 1986 (p 52).

* المستوى الأول وتضمن ٣٥ قطعة.
* المستوى الثاني وفيه وجدت ٥٥ قطعة.
* المستوى الثالث واشتمل على ٤٥ قطعة.

تعميما للفائدة وتتويجا للأبحاث الميدانية بعدة مواقع مغربية وسودانية، نشرت هذه الدراسة أعمالها بالملتقى الدولي للخزف القروسطوي بالبحر الأبيض المتوسط الذي انعقد بمدينة سيين Sienne بإيطاليا سنة ١٩٨٤[٨]. وظهرت دراسة أخرى مشابهة وتهم خاصة القناديل الزيتية في العدد الإضافي لمجلة أركيومتري Revue d'Archéométrie سنة ١٩٨٣[٩].

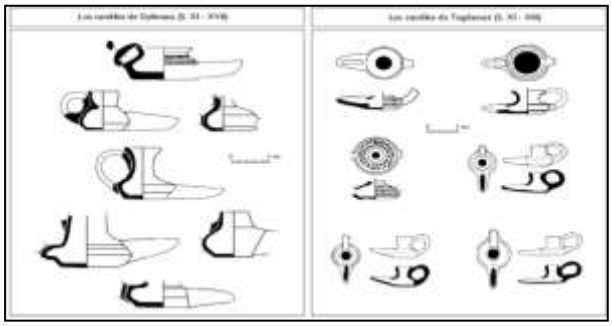

الشكل ٣ : مقاربة بين خزف سجلماسة وخزف أودغش

II- التنقيبات الأساسية:

١- الأبحاث الشخصية:

أ) المسح الأثري:

في إطار التحضير لرسالة الدكتوراه الموحدة بجامعة إكس- مرسيليا Université Aix-Marseille 1 حول خزف سجلماسة، قمت بمجموعة من الأبحاث الميدانية. ارتكزت أول الأمر حول إجراء مسوحا أثرية لموقع سجلماسة والضواحي وخاصة بالأماكن التي تعرف تركزا كبيرا للقى الخزفية، وذلك بهدف تحديد مراكز صناعة الخزف ومميزاتها التقنية ونوعية إنتاجها وتطورها الزمني.

امتد هذا المسح ما بين بداية شهر مارس ونهاية شهر يونيو من سنة ١٩٨٨ وكان الهدف منه تحديد موقع المراكز الخزفية بتافيلالت منذ عصر سجلماسة إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

---

[8]) Idem, op-cit (pp. 51-54)

[9]) Robert D. et Picon M., "Classification des lampes importées sur le site de Tegdaoust (Mauritanie)", dans Revue d'Archéométrie. N° : 7 ; 1983 ; diagramme dans le texte et 2 planches hors texte (pp. 59 - 69).

* اختيار أماكن المسح: اعتمادا على القاعدة التي تقول بأن أي تركز للقى الخزفية فوق سطح موقع أثري معين، يعد بمثابة مؤشر على وجود بقايا أثرية تحت السطح، وقع اختياري على ثلاث تجمعات مهمة للقطع الخزفية: تجمعان بموقع سجلماسة وثالث بقصر بحاير الأنصار على بعد كيلومتر واحد غرب سجلماسة.

* التقنية المعتمدة: كانت التقنية المختارة هي المسح بواسطة التربيع من ٢٥ م^{٢} أو ٦،٢٥ م^{٢} ووفق مقياس لومبير Lambert ووفق البطاقة التقنية التالية:

الموقع	موقع سجلماسة الأثري، قرب مدينة الريصاني، إقليم الرشيدية
مجال المسح	الجزء الغربي للموقع، شمال ملعب كرة القدم الحالي.
التربيعات	(16-1)A، (16-1)B، (16-1)C، (17-1)D، (16-1)E، (16-1)F.
تاريخ المسح	من 6 إلى 12 أبريل 1988.
نوعية المسح	الجمع بواسطة تربيع من 25 متر مربع [5×5 أمتار].
عدد المشتغلين	02
المساحة	2425 مترا مربعا
الطبوغرافية	مجال منبسط على العموم مع وجود ركامات من الأتربة ذات اللون الرمادي والمختلطة بالرماد والرمل والحصى واللقى
عدد اللقى المجمعة	16902
التصنيف	15010 من الخزف العادي و1892 من الخزف المملط 279 شكلا فضلا عن الفواصل، والآجر، والأواني غير المكتملة الصنع ومواد الصباغة المكلسة.
عدد النقود المكتشفة	3 فضية.
تحليل أولي	بعد وضع مثلثات من 3 و 4 و 5 أمتار، ثم مربعات من 25 متر مربع، قمت بجمع كل اللقى مع عدها ووضعها داخل غشاء بلاستيكي. ثم يتم اختيار اللقى التي تمثل شكلا معينا ويحتفظ بها، بينما ترجع الباقية إلى مكانها الأصلي.
ملاحظات عامة	منطقة المسح تختلف كثيرا عن المجال المحيط بها، حيث التربة رمادية وكثرة اللقى الخزفية. عدة مؤشرات تدل على وجود صناعة خزفية بهذا المكان مثل الفواصل، والأواني غير المكتملة الصنع، والآجر، والرماد ومواد الصباغة المكلسة.
البطاقة التقنية	أخذت صورة شفافة لهذه المنطقة وكذا صور بالأبيض والأسود، كما وضعت لها تصميما على شكل خطاطة.

الشكل ٤ : بطاقة تقنية للمسح الاثري بموقع سجلماسة سنة ١٩٨٨

وبالفعل توصل المسح الأثري الذي أجريته بموقع سجلماسة إلى عدة نتائج أهمها:

أولا: تحديد مراكز الصناعة الخزفية السجلماسية ويمكن التمييز بين ثلاثة منها:

* المركز الأول الذي عاصر أغلب فترات سجلماسة وخاصة ما بين القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي والقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. يقع هذا المركز غرب وادي غريس وعلى بعد حوالي ست كيلومترات من سجلماسة، وهو بذلك غير بعيد عن مركز المدينة وفي اتجاه الرياح شمال / شرق- جنوب / غرب أو شرق- غرب وهو أيضا قريب من منابع المياه، ومن مصادر الحطب ومن مقالع الصلصال. هذا المركز المسمى حاليا سوق ابن عقلة، يتضمن آثار بنايات ذات أساس من الحجارة، وبقايا أفران وكميات هائلة من اللقى الخزفية تشبه في معظمها ما تم العثور عليه بموقع سجلماسة في الطبقات التي تنتمي إلى ما يسمى ب"الفترة الوسيطية"، مما يطرح إمكانية أن يكون هذا المركز هو الذي احتضن الصنائع الخزفية في عهد سجلماسة.

* المركز الثاني يقع قرب خزان الماء على الضفة الشرقية لوادي زيز، ففي هذا المكان عثرت على عدة مؤشرات تدل على وجود صناعة خزفية مثل الأواني غير المكتملة الصنع "rebuts ou ratés de cuisson"، والفواصل "pernettes"، والآجر المحروق، والأصباغ المكلسة، والرماد، والفحم وعدد كبير من القطع الخزفية. وكشفت حفريات ١٩٨٨ ميلادية عن بناية تنتمي لهذا المركز والتي شيدت فوق بنايات سابقة. من جهة أخرى، أكدت أبحاث مختبر الخزفيات بليون أن إنتاج هذا المركز متأخر عن عصر سجلماسة وبأن مكوناته الصلصالية تختلف شيئا ما عن مثيله الموجود بغرب وادي غريس [فهو صلصال من صنف زيز]. اكتشفت بالمسح أواني مختلفة، وتأكد أن هذا المركز الخزفي بني على أنقاض مدينة سجلماسة بعد تخريبها في نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

* المركز الأخير يقع بداخل قصر بحاير الأنصار على بعد كيلومتر واحد غرب سجلماسة، وقد خلف المركز الثاني مباشرة بعد إعادة بناء القصبة السجلماسية من طرف السلطان مولاي إسماعيل في نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي. وظل المركز يشتغل إلى غاية أواسط القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي على الأقل، وتم العثور على عدة مؤشرات بعين المكان أهمها: ٦٢ عملة نقدية تؤرخ في معظمها بالقرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، ثم تشابه القطع الخزفية مع مثيلاتها المكتشفة في حفريات ١٩٧٤ ميلادية وفي الطبقات العليا من الحفريات الأمريكية (١٩٨٨– ١٩٩٦ ميلادية). ويحتفظ المركز ببقايا أثرية تنتمي للصناعة الخزفية ومنها أنقاض الأفران الثلاثة بصفة خاصة.

ثانيا: تسليط الضوء على مختلف الأصناف الخزفية التي أنتجت بمنطقة سجلماسة وعلى وجود صناعة خزفية بالمنطقة وعن خصائصها. إذ استطاع المسح عامة تحديد مراكز الإنتاج الخزفي بسجلماسة من جهة ومن جهة أخرى تحديد السمات التقنية والشكلية والكرونولوجية لكل صنف.

ثالثا: توزيع القطع الخزفية حسب أماكن المسح قصد تحديد كثافة القطع الخزفية في كل مربع وبارتباط مع مجموع القطع المجمعة، أو تحديد كثافة كل صنف خزفي (عادي أو مملط) بارتباط مع مجموع اللقى لكل مربع أو المكان، وأخيرا تحديد كثافة الأواني الخزفية حسب استعمالها في علاقة مع مجموع اللقى المجمعة. ويمكن تقديم النتائج التالية:

- في المنطقتين الأولى والثانية الواقعتين بموقع سجلماسة، يظهر أن اضطراب السطح لعب دورا كبيرا في توزيع الخزف، فالمنطقة الأولى هي عبارة عن ركام للتربة أخرج من ورش إنجاز الملعب الرياضي وفيه وجدت القطع الخزفية مشتتة ومتفرقة.

• المنطقة الثانية تتكون من توضعات رملية لوادي زيز ويكون فيها الخزف العادي الأغلبية [٦٠ إلى ٧٠ في المائة]. الخزف المكتشف بالمنطقة الأولى يشبه مثيله المكتشف بالاستبار الثالث من حفريات ١٩٨٨ ميلادية، بينما يشبه خزف المنطقة الثانية نظيره المكتشف بالطبقات الأثرية للاستبار الأول والتي لا يتعدى عمقها مترين ونصف. توزيع الأواني، يوضح سيطرة الجرات الصغيرة (٦٢،٣٦ في المائة بالمنطقة الأولى) وخاصة الأواني المستعملة في نقل أو حفظ الماء، مما يؤكد أهمية الماء وأوانيه في الحياة المعيشية لسكان سجلماسة.

• منطقة بحاير الأنصار: خلافا للمنطقتين السابقتين، يلاحظ هيمنة الخزف المصبوغ [حوالي ٧٠ في المائة]، أهم المكتشفات تم جمعها بالمربعات التي تقع عليها الأفران الثلاثة وتسيطر أواني المائدة (الأقداح، والصحون، والفنجان...) بنسبة ٥٤،٥٣ في المائة، وتأتي من بعدها أواني حفظ السوائل (الجرات الصغيرة، والقارورات والقلل) بنسبة ٢٥،٩٨ في المائة، بينما لا تمثل آنية الطبخ سوى ١،٨٤ في المائة.

خلاصة القول إن المسح الأثري مكن من تحديد أو تأكيد مواقع المراكز الخزفية السجلماسية سواء خلال "الفترة الوسيطية" أو ما بعدها. ومكن المسح أيضا من تقديم توضيحات أكثر وجزئيات عن مختلف الأصناف الخزفية في تكوينها الصلصالي، وفي أشكالها، وفي تقنياتها الزخرفية وفي تسلسلها التاريخي. كما تجدر الإشارة إلى أن الطبوغرافية والإنسان لعبا دورا هاما في التوزيع النهائي للقى والأواني الخزفية على السطح

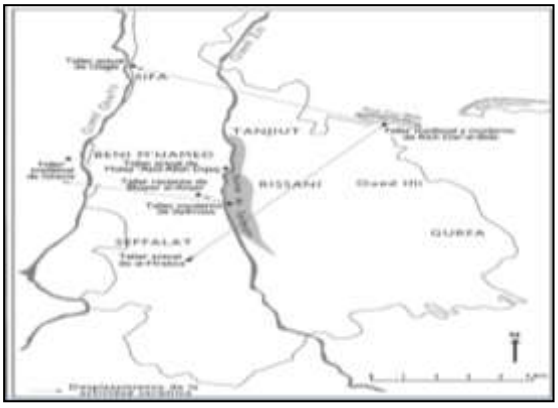

الشكل ٥ : مراكز إنتاج الخزف بمنطقة سجلماسة (تافيلالت)

ب) حفريات دجنبر ١٩٩٠ ميلادية:

تهدف هذه الحفريات[١٠] إلى إماطة اللثام عن السور الغربي لمدينة سجلماسة وجمع معطيات جديدة حول الصناعة الخزفية التي تنتمي لفترة ما بعد سجلماسة (القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي – الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي).

* مجريات التنقيب والنتائج:

كان الهدف الأساسي من هذه الأبحاث هو إبراز امتداد السور الغربي لسجلماسة والذي تظهر أجزاء منه من حين لآخر بفعل جريان وادي زيز. في البداية تتبعت هذه الأجزاء البارزة انطلاقا من سد وانكاكا شمالا إلى غاية قصر تابوعصامت جنوبا. لحسن الحظ وبالرغم من قساوة الظروف الطبيعية ومن تدخل الإنسان، لا زالت الكثير من هذه الأجزاء واقفة داخل مجرى زيز أو بالضفة اليسرى "الشرقية" منه. وبالفعل تم الكشف عن بقايا السور السجلماسي على امتداد يصل إلى حوالي خمس كيلومترات من الشمال إلى الجنوب، مما يسمح مؤقتا بتحديد موقع سجلماسة من الجهة الغربية. وبدأ فريق العمل بإزالة التراب عن هذا السور بالارتكاز على ثلاث أجزاء غير واضحة والأخذ بعين الاعتبار تبيان جانبي السور بإنجاز أسبار يبلغ عرضها ٠،٦٠ مترا ويتراوح عمقها ما بين ٠،٦٠ و مترا واحدا:

– الجزء الشمالي من السور الغربي: يقع على بعد ١٥٠ مترا جنوب سد وانكاكا، و٢٠٠ مترا غرب السور الحديث للقصبة السجلماسية، و٣٥،٥٠ مترا جنوب الاستبار الرابع من الحفريات الأمريكية لسنة ١٩٨٨ وعلى الضفة الشرقية لوادي زيز. المسافة المقترحة للحفر تساوي ٢٧٤،٣١ مترا أي المسافة التي تفصل بين بقايا برجين رئيسيين تظهر معالمهما على السطح. إلا أن امتداد السور لم يعثر عليه انطلاقا من ٨٠ مترا إلى الشمال من البرج الأول، مما يتطلب معه إجراء حفريات عميقة، وجعل بالتالي المسافة التي حفرت لا تتجاوز ١٩٠ مترا.

شيد السور المكتشف أساسا من الطابية التي تتكون من طين صلصالية حمراء ومختلطة بالحصى ومملطة على الواجهتين. ظل خط امتداد السور مستقيما على العموم وتتخلله ثلاثة أبراج ذات أشكال وأحجام مختلفة تتراوح مقاييسها ما بين ٤،٥٠ × ٣،٢٠ أمتار، و٨،٥٥ × ٥،٩٠ × ٣،٠٠ أمتار و٦،٥٠ × ٦،٠٠ أمتار.

تتمثل القطع المكتشفة في عدد كبير من اللقى الخزفية ينتمي أغلبها لصنف بحاير الأنصار والذي يؤرخ ما بين القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي والثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. أهم الأشكال الخزفية هي الصحون، والجرات، والقناديل الزيتية، والقدور. إلا أن أهم اكتشاف يتمثل في "خلالة" صغيرة

[١٠] هذه الحفريات التي أنجزت ما بين ٢٠ و٣٠ دجنبر ١٩٩٠، بمساهمة مادية من مختبر الخزفيات، دار الشرق بمدينة ليون Lyon، فرنسا [٥٥٠٠ درهم]، أشرف عليها لحسن تاوشيخت، مدير مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني، وشارك فيها ١٥ عاملا.

كاملة صنعت من الفضة والتي يمكن تأريخها ما بين القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

– الجزء الأوسط: يقع جنوب الجزء السابق على بعد ٢٠٠ مترا شمال قنطرة وادي زيز و ستة أمتار إلى الجنوب منها. بهذا الجزء تمت معاينة نفس بقايا السور الغربي لسجلماسة في مكوناته، وفي امتداده. ولإبراز هذا الجزء تم اعتماد نفس التقنية بالحفر على جانبيه على عرض يبلغ ٠،٦٠ مترا وعمق يتراوح بين ٠،٦٠ ومترا واحد. وتمكنت الحفريات من الكشف عن ثلاثة أطراف من السور: يقع الطرف الأول في الشمال ويبلغ طوله ٤١ مترا، وسمكه المتبقي من التعرية النهرية يصل إلى حوالي متر واحد، ويتراوح علوه الحالي ما بين متر واحد ومتر و٤٠ سم. يوجد الطرف الثاني على بعد ستة أمتار جنوب القنطرة الرئيسية لوادي زيز ويبلغ طوله ٥٥،١١ مترا، وسمكه المتبقي حوالي ٠،٧٠ مترا وعلوه الظاهر يصل إلى ٠،٧٠ مترا. يقع الطرف الأخير على بعد ٤٥ مترا جنوب الطرف الثاني ويبلغ طوله ١١،٥٠ مترا، والسمك الحالي حوالي ٠،٩٠ مترا ويتراوح العلو ما بين ٠،٥٠ و٠،٨٠ مترا.

لم تكتشف أية قطعة أثرية في هذا الجزء، ذلك أن جانبي السور كانا يتكونان فقط من ركام من الطمي والرمل الناتج عن ترسبات وادي زيز والرياح.

– الجزء الجنوبي: يظهر مباشرة في مقدمة السد التلي المعروف ب"سلاوة" على بعد حوالي كيلومترين ونصف جنوب قنطرة وادي زيز وعلى بعد ٥٠ مترا جنوب غرب قصر جرينفود الحالي. يمر هذا الجزء وسط مجرى وادي زيز، مما سمح بمعاينة الأطراف الظاهرة بكل سهولة واقتصرت أعمال الحفر على إبراز هذه الأطراف بشكل واضح والتي يبلغ طولها ٥٠ مترا، ويتراوح سمكها المتبقي ما بين ٠،٦٠ ومتر واحد

ويصل علوها إلى ٠،٨٠ مترا. بقايا السور هي من نفس العينة وتتخذ نفس الاتجاه شمال– جنوب، ولم يعثر بهذا الجزء على أية لقى خزفية تستحق الذكر.

* النتائج:

بصفة عامة، يكشف هذا البحث النقاب ولأول مرة عن الجزء الغربي لأحد أسوار سجلماسة من حيث تكويناته، وشكله واتجاهه. وبفضل هذا البحث تم إزالة بعض الغموض الذي كان يكتنف حدود موقع سجلماسة من الجهة الغربية على الأقل في فترة من فتراتها التاريخية. ومع ذلك فهذا التحديد لا يزال في حاجة ماسة إلى إظهار أجزائه الأخرى وخاصة بالجهة الشرقية.

ويمكن القول، اعتمادا على البقايا الأثرية الظاهرة، إن قصر المنصورية يمثل الحد الأقصى لسجلماسة من الناحية الشمالية وقصر تابوعصامت من الجنوب. وترجع صعوبة تحديد السور السجلماسي إلى ما عرفته مدينة سجلماسة من عمليات التوسع والانكماش المعماري بفعل دورها التاريخي وخاصة الاقتصادي الهام. وكانت نتيجة ذلك أن تحصيناتها تعرضت لعدة مراحل من البناء والهدم، مما أدى إلى انعدام الاستقرار في امتداد سورها الأول.

الشكل ٦ : حفريات سنة ١٩٩٠

* الدراسة الخزفية:

شملت التحريات حول الخزف السجلماسي المنطقة الواقعة على بعد ثلاثة أمتار شمال الملعب الرياضي ومائتي مترا شرق وادي زيز. وتهدف هذه التحريات إلى تعميق الفهم حول الخصائص الخزفية وتأكيد وجود مراكزه الإنتاجية التي شيدت فوق أنقاض مدينة سجلماسة. واعتمادا على المسح السطحي للمنطقة، تم تجميع عدد هائل من اللقى والأواني الخزفية. وتنتمي أغلبية هذه اللقى إلى ثلاث مجموعات رئيسية: الأولى سجلماسية (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي – الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)، والثانية ما بعد سجلماسية (القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي – القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي) والمجموعة الأخيرة مجهولة الانتساب (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي – القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي).

فيما يخص الأشكال، كل الأواني ذات الاستعمال اليومي كانت ممثلة [أواني الطاولة، وأواني الخزن، وأواني الماء، والقناديل الزيتية، وآنية الطبخ...]. كما اكتشف بالمكان مختلف بقايا الصناعة الخزفية مثل الفحم، والرماد، وقطع من النحاس المكلس، والأواني غير المكتملة الصنع، والآجر المحروق، وفواصل الآنية داخل الفرن وعدة قطع أخرى...

يؤكد الباحث موريس بيكون Maurice Picon الذي زار موقع سجلماسة سنة ١٩٨٤ ميلادية في إطار أبحاث مختبر الخزفيات بليون، أن هذا الموضع احتضن عدة معامل خزفية ومعدنية. وظلت المراكز الخزفية التي أقيمت في عين المكان تعمل منذ تخريب مدينة سجلماسة في أواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وإلى غاية تشييد القصبة السجلماسية من طرف السلطان مولاي إسماعيل في أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي.

تقدم التحاليل الكيماوية لمختبر الخزفيات بليون المطبقة على بعض القطع الخزفية المنتجة من لدن هذه المعامل، خلافات ضئيلة في تكوينها مع نظيرتها السجلماسية التي تنتمي لمعامل وادي غريس، بينما تنتمي هذه القطع لما يسمى بصلصال زيز. نفس الشيء تثبته دراسة الأشكال، إذ يلاحظ تدنيا في تقنيات الإنتاج وخاصة فيما يخص السمك الذي أصبح أكثر غلظا والوزن الذي ازداد ثقلا والأشكال أقل رونقا والتمليط أقل بريقا.

خلاصة القول يمكن الإشارة إلى أن تحول تجارة القوافل الصحراوية نحو مسالك أخرى وخاصة نحو المحيط الأطلسي، كان له الأثر الكبير في التدهور الذي أخذ يدب في الجسم الحضاري لسجلماسة، ورافق ذلك ضعف في الطلب وقلة في المردودية. وكانت الصنائع وضمنها الصناعة الخزفية من المظاهر الاقتصادية التي تأثرت بسرعة وقوة، إذ أخذت في التراجع تدريجيا منذ ذلك التاريخ إلى اليوم.

2- الحفريات الأمريكية (١٩٨٨-١٩٩٨):

تعتبر هذه الحفريات من أهم الأبحاث التي أنجزت بموقع سجلماسة لحد الآن وذلك لما قدمته من نتائج كشفت عن بعض أسرار هذا الموقع واعتبارا لاستمرارها طيلة ستة مواسم متتالية في سنوات ١٩٨٨[١١] ، و١٩٩٢[١٢]، و١٩٩٣[١٣]، و١٩٩٤[١٤]،

---

[١١]) يتكون الفريق الأثري من: رونالد ميسيي Ronald Messier: مدير الأبحاث، ونيل ماكينزي Neil Mackenzie : مكلف بالحفريات ومساعد المدير، وستيفان براون Stevan Brown وجون رانكل Jone Runkle : طبوغرافيان، وفرانك كينتز Frank Kintz : مصور، وجيمس وياط James Wyatt : التوثيق، ولحسن تاوشيخت : منسق، وبعض الطلبة من المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث .I.N.S.A.P بالرباط [ك. بورشوق، أ. بوزوكار، ح. الشرادي، ع. الخياري، ح. الواسيني، م. النامي] ومتطوعين أمريكيين [هودسون J. Hudson، مكاليون S. Macallion، ميسيي S. Messier، مينيهان J. Minniehan، روفنر M. Ruffner، سينيي P. Sennyey].

[١٢]) أعضاء البعثة: رونالد ميسيي Ronald Messier كمدير الأبحاث، ونيل ماكينزي Neil Mackenzie كمساعد، ولحسن تاوشيخت كباحث في الخزفيات، وديل لايتفوت Dale Lightfoot وجيمس ميلر James Miller كجغرافيين، وجيمس كنودستاد James Knudstad كأثري، فضلا عن طلبة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث I.N.S.A.P ومتطوعين من مؤسسة إرتواتش Earthwatch.

[١٣]) أعضاء البعثة: رونالد ميسيي Ronald Messier : مدير الأبحاث، ونيل ماكينزي Neil Mackenzie: مكلف بالحفريات، ونانسي بينكو Nancy Benco : مكلفة بالمختبر، وسينتيا بيكر Cynthia Becker : مساعدة بالمختبر، ونانسي ماهوني Nancy Mahoney : دراسة البقايا النباتية، وباسيونس فريمان Patience Freeman : دراسة بقايا العظام الحيوانية، وديل لايتفوت Dale Lightfoot : الدراسة الجغرافية، وأليزا شنارس Alisa Schnnars : مصورة، ولحسن تاوشيخت : منسق، وكَريكَ لانتش Greg Lynch : مكلف بالمعلوميات، إضافة إلى ١٠ طلبة من المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث .I.N.S.A.P و٦ متطوعين من منظمة أورتواتش Earthwatch.

و١٩٩٦[١٥] و١٩٩٨[١٦] وأيضا لاعتمادها تخصصات متعددة. هذه الحفريات أشرفت عليها بعثة أمريكية مغربية مشتركة في إطار التعاون بين جامعة ميدل تينيسي State Middle Tennessee University بالولايات المتحدة الأمريكية من جهة والمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط l'Institut National des Sciences d'Archéologie et du Patrimoine من جهة ثانية وذلك برئاسة الباحث رونالد ميسيي Ronald MESSIER.

يمكن القول إن الحفريات الأمريكية منذ بدايتها سنة ١٩٨٨ وإن اتخذت طابعا ظرفيا، إذ لا يتعدى كل موسم مدة شهر أو شهر ونصف على أكبر تقدير، فإنها كانت مبادرة أولية لمعرفة خصوصيات موقع سجلماسة اعتمادا على إنجاز أسبار في عدة أماكن مختلفة، قصد الحصول على المعطيات الأساسية للبقايا الأركيولوجية بهذا الموقع. وبالرغم من الصعوبات الكثيرة التي يطرحها موقع سجلماسة الأثري، فإن هذه الحفريات تمكنت من تسليط الأضواء على العديد من المكتشفات يمكن إجمالها فيما يلي:

* أظهرت حفريات المسجد الجامع أن هذا الأخير يعتبر من المعالم العمرانية التي تحظى دائما بعناية الحاكمين والمحكومين على السواء، فكل يعمل حسب إمكانياته حتى يكون المسجد في أحسن حلة. ولعل هذا ما يفسر المستويات الأثرية المتنوعة التي كشفت عنها الحفريات والتي تمثل سجلا تاريخيا لمراحل البناء والإصلاح بالمسجد على مرور مختلف العهود. وكشفت هذه الحفريات النقاب عن أربع مستويات مختلفة:

- مستوى ينتمي إلى ما قبل وصول المرابطين أو إلى فترة سيطرتهم النهائية على سجلماسة (قبل ق ١٠م)،
- مستوى توسيع المسجد في عهد الموحدين (القرن ١٢ م)،
- مستوى التجديد على يد السلطان مولاي إسماعيل (نهاية القرن ١٧ أو بداية القرن ١٨م)،

---

[١٤]) تكونت البعثة تقريبا من نفس تشكيلة الموسم الثالث في أعضائها الأساسيين مع اختلاف في الطلبة المغاربة والمتطوعين الأمريكيين.

[١٥]) انطلق الموسم الخامس للحفريات بموقع سجلماسة يوم ٢٩ فبراير ١٩٩٦ تحت إشراف وزارة الشؤون الثقافية وبتعاون بين جامعة ميدل تينيسي والمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث بالرباط تحت إدارة الباحث الأمريكي رونالد ميسيي R. Messier وبمشاركة عدة باحثين أمريكيين، من بعض طلبة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث ومن بعض متطوعي منظمة أورتواتش Earthwatch وبتمويل من عدة مؤسسات أمريكية ومغربية هي : مؤسسة البركة Al-Baraka Fondation، ومؤسسة ماكس فان برشم Fondation Max Van Berchem، وجامعة ميدل تينيسي,Middle Tennessee State University ، ومجلة الجغرافية الوطنية National Geography Society والمعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث.

[١٦]) كانت البعثة برئاسة الباحث رونالد ميسيي R. Messier وبمساعدة نيل ماكينزي N. Mackenzie ، وتتكون من باحثين مغاربة وأمريكيين فضلا عن بعض طلبة المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث وكذا بعض متطوعي مؤسسة أورتواتش Earthwatch.

- مستوى إعادة البناء من طرف السلطان سيدي محمد بن عبد الله (نهاية القرن
- ١٨م).

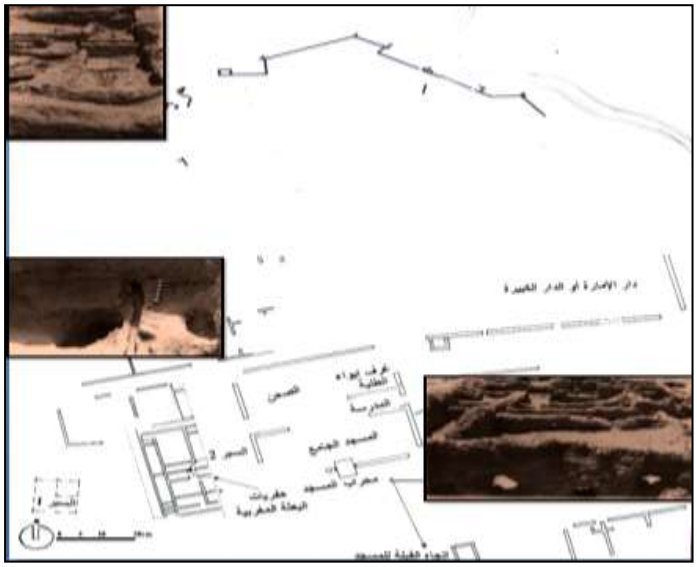

الشكل ٧ : حفريات ١٩٧٤ و ١٩٨٨

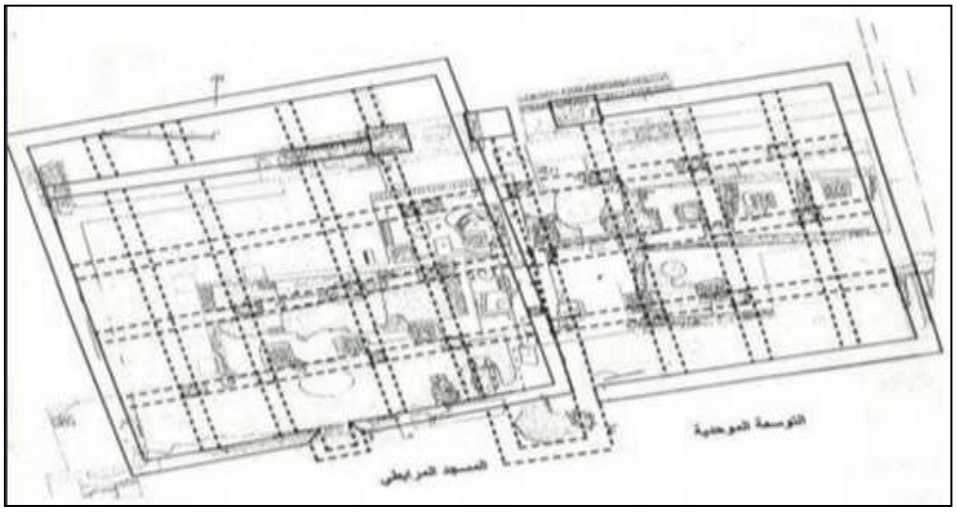

الشكل ٨ : حفريات المسجد الجامع ١٩٩٦ و١٩٩٨

* محاولة تحديد وظيفة البناية التي تقع وسط وادي زيز والتي يفترض أنها عرفت مرحلتين من الاستغلال: الأولى ربما كحمام عمومي والذي تعبر عنه الطبقات الأثرية السفلى التي يتراوح عمقها بين متر واحد ومترين ونصف أمتار. الثانية تمثلها الطبقات العليا وهي عبارة عن حوض وقناة مائية وهما يشكلان ولا شك أجزاء من النـــاعورة

ترتبط بشبكة مائية كانت تزود مرافق سجلماسة أو القصبة السجلماسية بما تحتاجه من المياه سواء المستعملة في الشرب أو السقي.

* وقدمت حفريات البعثة المغربية الأمريكية معلومات هامة حول السور الغربي لسجلماسة. فقد كشفت الأسبار المنجزة داخل بعض الأبراج عن مستويين مختلفين في البناء ويقعان فوق مستوى سابق يمكن أن يؤرخ بالقرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي أو القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. وأثبتت الدراسة الطبوغرافية التي قام بها طوني ويلكنسن Tony Wilkinson أن سجلماسة كانت عبارة عن مدينة تمتد على طول وادي زيز وكانت لها أربعة أبواب رئيسية هي : باب الساحل من الشرق قرب قصر أمسيفي، وباب القبلة أو الجنوب ويقع بين قصري وطارة وكَاوز، والباب الغربي يوجد قرب ضريح مولاي عبد المؤمن وباب فاس بالشمال قرب قصر المنصورية. كما أبانت التحريات أن سجلماسة كانت محاطة من الشمال والجنوب بعدة أرباض ومعامل صناعية.

* تدقيق المعرفة بموقع سوق ابن عقلة، إذ يلاحظ من خلال الصور الجوية والمسح الأثري أن هذا الموقع يمتد على مساحة تتراوح ما بين كيلومتر واحد وكيلومترين مربعين، كما تم معاينة طريق ضيق ومستقيم يربط بين موقعي سجلماسة وسوق ابن عقلة. وتوصلت الأبحاث إلى اكتشاف بقايا بنايات مستطيلة تحدها المقبرة في الشمال وفي الجنوب من الطريق التي تخترق هذا الموقع. وتوجد في الوسط تشكيلات عمرانية مربعة ومحصنة تمتد على مسافة ٩٠ مترا من الشرق إلى الغرب وعلى ٨٠ مترا من الشمال إلى الجنوب. ويظهر من هذه البقايا أنها كانت تمثل فندقا أو حصنا، وأن هذا السوق كان يحيط بالحقول ويمثل امتدادا طبيعيا للمدينة الأم "سجلماسة" وكان يمثل محطة لقوافل التجارة البعيدة الآتية إلى سجلماسة أو الذاهبة منها.

* الخزف المكتشف خلال هذه الحفريات يمكن تصنيفه إلى ثلاث مجموعات: الأولى توجد في الطبقات العليا وتنتمي إلى الصناعة الخزفية البحايرية والمؤرخة ما بين نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي [تاريخ بناء القصبة السجلماسية] وبداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي [تاريخ تخريب القصبة]. يتميز خزف هذه المجموعة بوجود طلاء لامع ذي لون أخضر أو أصفر أو بني وأهم أوانيه هي الأقداح، والجرات والصحون. ويضاف إلى هذا الصنف الخزف المستورد من المناطق والمدن الأخرى وخاصة من مدينة فاس. المجموعة الثانية ترجع إما إلى المركز الخزفي المشيد على أنقاض مدينة سجلماسة ابتداء من نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أو بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وإلى غاية تشييد القصبة السجلماسية في نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، أو إلى الواردات من مصانع أخرى. المجموعة الأخيرة وجدت بالطبقات السفلى للأسبار وترجع إلى المعامل السجلماسية الواقعة بغرب وادي غريس

وإلى مراكز أخرى قريبة أو بعيدة. وتؤرخ ما بين القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ونهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. وتتميز بتقنية إنتاجية عالية وبتكوين صلصالي جيد يتخذ لونا أصفرا أو أبيضا مع سمك رقيق وتمثل أغلب قطعها الأواني ذات الاستعمال المنزلي. وتنتمي القطع الخزفية المجمعة على

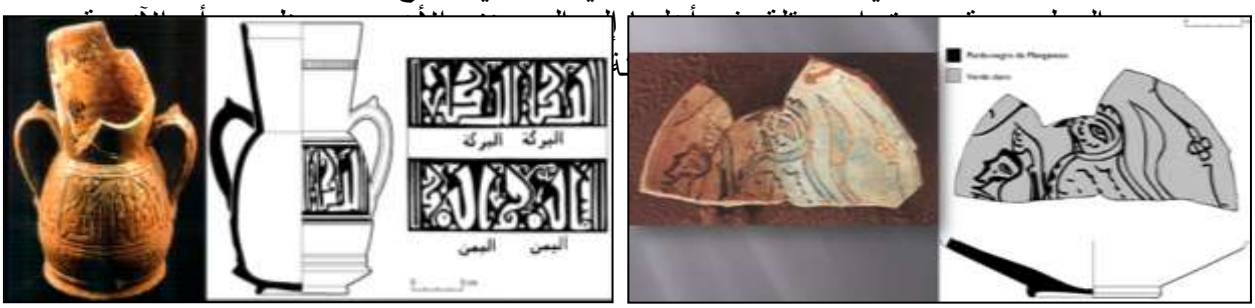

الشكل ٩ : أهم اللقى الخزفية السجلماسية

* وقامت البعثة الأمريكية ولأول مرة بإنجاز تصميم طبوغرافي وأثري لموقع سجلماسة في جزئه الأوسط. كما أخذت رفوعات لواجهات الطبقات الأثرية وخاصة منها الواقعة بالجهة الشرقية. هذه الرفوعات أكدت أن موقع سجلماسة تعرض لعدة تغييرات ارتبط بعضها بالاضطرابات السياسية والاجتماعية التي شهدتها المدينة خلال معظم فترات تاريخها وبالخصوص في نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. وكان من نتائجها أن قام السكان بهدم سور المدينة والارتحال عنها نهائيا للاستقرار بالضواحي. ومنها من له صلة بما تذكره الرواية الشفوية والدراسة الجيومورفولوجية من كون سجلماسة تعرضت لفيضانات مهولة أو إلى زلزال قوي مما أدى إلى تخريبها بالكامل. ويوضح المقطع الاستغرافي للجهة الشرقية والمكتشفات الخزفية، هذا الخلط والاضطراب اللذين عرفهما موقع سجلماسة. فاللقى الخزفية تكون جد مختلطة في معظم الطبقات، مما يجعل من الصعب أحيانا التمييز بين الخزف السجلماسي المنتمي لما قبل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وبين الذي يعود إلى الفترات اللاحقة.

* دراسة البقايا النباتية التي توصلت اعتمادا على النماذج المنتقاة من الطبقات الأثرية إلى تحديد العينات التالية:

– العنب (Vitis Vinifiera): ويعتبر من أكثر النباتات التي تم استخلاصها من النماذج المنتقاة وجاءت خاصة من الاستبار ٢١ الذي يمثل المنطقة السكنية بالجزء الجنوبي، ومن الاستبارين ٣١ و٣٨ بمستويات أسفل المسجد. وكلها حسب التحليل بواسطة الكاربون ١٤ C ترجع إلى فترة المرابطين وربما إلى ما قبل هذه الفترة.

– الذرة (Hordeum): وتأتي أغلبها (٩١ في المائة) من الاستبارين ٣١ و٣٨ وكانت تحرث بكثرة بمجال سجلماسة وتؤكل خاصة كخبز.

– الحشائش الطبيعية (Poaceae): وتستعمل في تغذية الماشية وقد وجدت بالاستبارين ٣١ و٣٨.

– القمح (Triticum): ويمثل ٣٢ في المائة من كل النماذج وكان من بين المواد الغذائية الأكثر استهلاكا.

– التمر (Dactylifera du Phénix): واكتشفت بالاستبار ٢٧ وبالرغم من أهميتها الحالية بواحة تافيلالت، فإن النماذج المنتقاة منها ظلت قليلة ويرجع هذا ربما إلى إعادة استعمال نواتها في الغرس أو في العلف ومن النادر أن يرمى بها على الأرض.

*وكشفت دراسة بقايا العظام أن تغذية سكان المغرب الأقصى عامة وسجلماسة بصفة خاصة خلال ما يطلق علية بالعصر الوسيط تتشابه إلى حد كبير مع تغذية المغاربة حاليا ذلك أن استهلاك اللحم يرتكز أساسا على الماعز في الأصل، والغنم وبعض الدواجن. وهو نفس ما أكدته دراسات مشابهة بمواقع مغربية أخرى وخاصة بالقصر الصغير[١٧] بشمال المغرب.

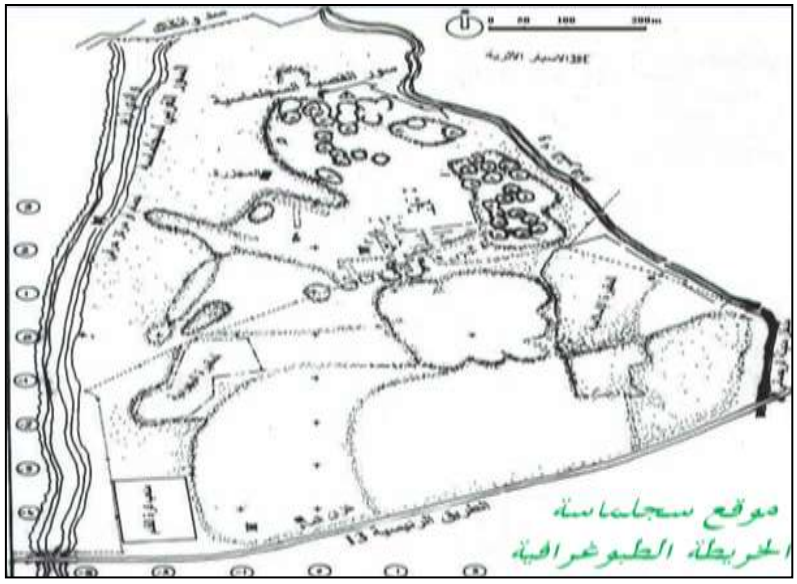

الشكل ١٠ : الخريطة الطبوغرافية لموقع سجلماسة

[17]) Redman Ch.L., "Survey and test excavation of six medieval islamic sites in northern morocco", dans Bulletin d'Archéologie Marocaine. Tome : XV ; 1983 - 1984. 33 figures dans le texte (pp. 311 - 49).

خلاصة:

يظهر بجلاء أن مدينة سجلماسة حظيت باهتمام واسع من لدن عدد من الكُتاب القدامى، وجذبت منطقتها أعين المستكشفين الأوربيين منذ القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، وكانت موضوع دراسات جامعية داخل المغرب وخارجه، وخضع موقعها لأبحاث أثرية من طرف بعثات علمية مغربية وأجنبية. وابتداءً من سنة ١٩٨٦ كان هذا الموقع محط انشغال المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث، واستمرت مع ذلك في مواراة الكثير من أسرارها الدفينة. فلا غرو أن مدينة سجلماسة كمركز حضري لعبت أدوارا هامة في تاريخ المغرب الأقصى وأبت وهي تحت الأنقاض، إلا أن تستقطب المزيد من فضول الباحثين.

وإجمالا قدمت الأبحاث الأركيولوجية بموقع سجلماسة عدة نتائج وكشفت عن معطيات معمارية مهمة لم ترد في المؤلفات المكتوبة بتفصيل. من الأمثلة على ذلك المسجد الجامع والتطورات البنائية التي عرفها منذ فترة المرابطين وإلى غاية العصر العلوي الأول، ثم السور الخارجي من حيث مواد بنائه، ومن حيث امتداده ومكوناته. كما قدمت معلومات عن نمط السكن السجلماسي من حيث التصميم، مواد البناء وتشكيلاته وأيضا عن المنشآت الإنتاجية مثل الصناعة الخزفية من حيث تمركز معاملها وتطورها ومنتجاتها والأدوات المستعملة. كما كشفت التحريات الأثرية أيضا عن بعض التجهيزات المائية كالسدود والقنوات والأحواض والخطارات وغيرها.

وإذا كانت الأبحاث الأثرية قد توصلت إلى تحديد موقع سجلماسة، فإن معطياتها حول الجوانب المعمارية لهذه المدينة، تبقى لحد الآن ضئيلة ويرجع ذلك إلى أسباب متعددة يتجلى أهمها في أن موقع سجلماسة عرف عدة تغييرات بنائية خلال مختلف العصور وحتى بعد تخريب المدينة. فقد أحرقها الفاطميون، ودكها المرابطون قبل السيطرة عليها، وهاجمها الموحدون بقوة، وأطلق عليها المرينيون المنجنيق، وكانت مسرحا لثورات كثيرة وللصراع بين الحكام والأمراء، وفي الأخير ثار سكانها على عامل المرينيين بها فكان ذلك إيذانا بنهايتها، إذ تهدمت بناياتها وهجرها السكان ليستقروا بالضواحي.

وبعد اندثارها، استغل الحرفيون وخاصة الفخارون الموقع لتشييد معاملهم، واستمر هذا الوضع إلى غاية نهاية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي وصادف ذلك بناء القصبة السجلماسية في قلب الموقع قبل أن تخرب في بداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. نفس الأمر ينطبق على بعض القصور والقصبات التي شيدت على أنقاض المدينة الأم ومن ذلك قصر المنصورية في الشمال، وقصر تابوعصامت في الجنوب وقصري أبو عام والريصاني في الوسط، ولم يعد يظهر من سجلماسة سوى بعض أجزاء السور الغربي وبقايا الباب الشمالي وبعض البنايات المتفرقة. من جهة أخرى يمتد خراب سجلماسة على مسافة تزيد عن ثماني كيلومترات من الشمال إلى الجنوب طولا وما

بين كيلومتر واحد وكيلومترين من الشرق إلى الغرب. ويتميز هــذا الموقــع بعــدم الوضوح في طبيعة الطبقات الأثرية التي يتراوح عمقها ما بين ثلاثة و ثمانية أمتار حسب الأماكن.

المراجع المعتمدة

* تاوشيخت، لحسن: عمران سجلماسة، دراسة تاريخية وأثرية. الدار البيضاء مطابع النجاح الجديدة ٢٠٠٨ منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان (٧٠٢ ص)

* EL Hraiki, Rahma, Picon, Maurice et Robert, Denise : "Atelier producteurs et commerce transsaharien à l'époque médiévale", dans Colloque International de la Céramique Médiévale en Méditerranée Occidentale. Sienne 8 -12 octobre / Faenza 13 octobre 1984, Firenze, edizioni All 'Insegna del Giglio, 1986 (p 52).

* Rachewiltz, Boris : "Missione ethno-archéologica nel Sahara Maghrebino, rapporti préliminairi", dans Quaderni delle Rivista "Africa". Rome, A.B.E.T.E, publication de l'Instituto Italiano per l'Africa, sans date. 20 illustrations dans le texte et 10 figures hors texte (pp. 519 - 568).

* Redman, Charles-L.: "Survey and test excavation of six medieval islamic sites in northern morocco", dans Bulletin d'Archéologie Marocaine. Tome : XV ; 1983 - 1984. 33 figures dans le texte (pp. 311 - 49).

* Robert, Denise et Picon, Maurice : "Classification des lampes importées sur le site de Tegdaoust (Mauritanie)", dans Revue d'Archéométrie. N° : 7 ; 1983 ; diagramme dans le texte et 2 planches hors texte (pp. 59 - 69).

* Touri, Abdelaziz : « Problématiques d'une recherche d'histoire et d'archéologie médiévale dans la région du Maroc présaharien », dans Actes du IV° Colloque Euro-africain. 1985 (pp. 32-35)